مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

الانسجام الدلالي في النص القرآني:
قراءة في جهود الطاهر ابن عاشور في التفسير من خلال سورة الحديد

Semantic coherence in the Quranic discourse : A Review of Mohammed Taher Ibn Achour efforts in interpretation through surah "El-Hadid"

أ. أحمد برماد
bermad.ahmed@gmail.com
تحت إشراف أ.د عبد الناصر بن طناش
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

تاريخ الإرسال: 21_12_2018 تاريخ القبول: 13_06_2019

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على جهود المفسرين في إثبات انسجام النص في القرآن الكريم، وقد اتخذنا لذلك مدونة "التحرير والتنوير" لصاحبها محمد الطاهر ابن عاشور، حيث حاولنا من خلالها بحث الآليات الدلالية التي وظفها هذا الأخير في سبيل إثبات الانسجام في النص القرآني، وذلك بالوقوف على دور المناسبة النصية، والعلاقات الدلالية، وموضوع الخطاب في تحقيق الترابط المطلوب في النص القرآني.

الكلمات المفتاحية: الانسجام الدلالي؛ المناسبة النصية؛ العلاقات الدلالية ؛ ابن عاشور؛ سورة الحديد

ABSTRACT:

This research aims at shedding light on the Quran iterpreters' efforts to comfirm that textual coherence does exist in the Holy Quran. To this end , we have tackled Mohammed Taher Ibn Achour "Etahrir wa Tanwir" through which we have

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

tried to investigate the semantic mechanisms used by the author to show this coherence feature in doing so, we have examined the role of the textual connection, semantic relations, and the discourse topic in achieving the needed coherence in the Quranic text.

Keywords: Textual coherence; textual connection; Semantic relations; Ibn Achour; El- hadid surah

المقدمة:

تعد مسألة البحث في آليات الانسجام النصي –باعتبارها مجموعة من الآليات تجعل من بنية لغوية ما نصّا– من أكثر المسائل التي حازت عناية الدارسين والباحثين في المنجز اللغوي العربي قديمه وحديثه، وتكفي إطلالة بسيطة على محتوى التراث النقدي والبلاغي العربي لنكتشف هذا الأمر بكل يسر وسهولة، حيث تعبر عنه مباحث الوصل والفصل في البلاغة تعبيرا جليّا، ومباحث التماسك والتلاحم في مجال النقد الأدبي، وهي من أكثر المباحث تصويرا للجهد العربي في سبيل اكتشاف أوجه الصلة بين أجزاء النص الإبداعي العربي شعره ونثره.

وإذا كانت هذه المسألة –أي الانسجام النصي– بهذه الأهمية والمكانة في التراث النقدي والبلاغي واللغوي العربي، فإنها قد تبدو أكثر خطورة في مجال الدراسات القرآنية؛ ذلك أن المفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن ما انفكوا يقلّبون بصرهم وبصيرتهم في مسألة الترابط والتلاحم بين آيات القرآن الكريم وسوره، وقد أسهم في تعزيز هذا البحث أمران أساسيان:

– أولهما – وهو الأكثر أهمية – كون الآيات والسور الماثلة في المصحف الشريف ليست مرتبة ترتيبا تاريخيا، أي هناك اختلاف بين ترتيبين؛ ترتيب النزول وترتيب التلاوة، ومع أن أمرها محسوم باتفاق العلماء في كون مواضعها في المصحف الشريف كانت نابعة

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

من توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم، فالمسألة توقيفية لا دخل لجامعي ومدوني النص القرآني فيها[1]، إلا أن البحث في هذه المسألة لم يتوقف رغبة في استجلاء إعجاز هذا الترتيب.

– وثانيهما يتمثل في تعدد موضوعات السورة الواحدة والانتقال من موضوع إلى آخر في السورة الواحدة ،بل إن من السور وبخاصة الطوال منها ما يشتمل على مواضيع متعددة، اجتهد في إبرازها المفسرون والدارسون. فهذا التعدد حث الدارسين على البحث عن الآليات التي بها جمع النص القرآني أكثر من موضوع في السورة الواحدة.

وعلى هذا الأساس تتمحور فكرة هذا البحث، في محاولة استجلاء الآليات التي توسّل بها المشتغلون بالنص القرآني وبخاصة المفسرين منهم لإبراز الكيفيات التي تحقق بها انسجام النص القرآني من جهة، وإعجازه من جهة ثانية، وذلك في ضوء النقطتين التي تمت الإشارة إليهما سابقا ،على أن تركيزنا ينصب أساسا على الآليات الدلالية دون غيرها في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور باعتبار اهتمامه الواسع بقضايا الدلالة في تفسيره، وبحثه المتواصل عن أشكال الترابط بين الآيات والسور.

1. الانسجام النصّي في الدراسات اللسانية الحديثة:

تعتمد أغلب الدراسات اللسانية العربية الحديثة مصطلح "الانسجام" كمقابل للمصطلح الأجنبي (Cohérence) [2]، ونجد الفرصة مناسبة للقول إن هذا المصطلح لم تتحقق فيه المعايير المطلوبة في تشكل المصطلح العلمي في البيئة العربية إلا بعد جهد

[1]– ينظر: محمد أحمد يوسف القاسم، الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، دار المطبوعات الدولية، مصر، ط1، 1979، ص 244.

[2]– ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2009.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

جهيد، وتشعب واضح بين الدارسين العرب الذين ذهبوا في صياغته مذاهب عديدة بين محاولات تأصيل المصطلح وترجمته وتعريبه وغيرها من الآليات الاصطلاحية التي واجه بها الدارسون المحدثون هذا المفهوم الحديث، الذي يشير في أبسط تحديد له إلى الآليات الدلالية والتداولية التي تحكم اجتماع العناصر اللغوية في نص/ خطاب ما، وأحد المعايير التي تتحقق به نصيّة النصوص كما صاغها "روبرت دي بوجراند" (R. de beaugrande)[1]، فترى الدارسين العرب قد تجلت عندهم كل مظاهر الفوضى الاصطلاحية من تداخل مصطلحي وترادف وغيرها من العيوب التي ينبغي أن تتجنب حين يتعلق الأمر بضبط المصطلحات وصياغة مفاهيمها، ويكفي أن نشير إلى أهم مظاهر هذه الفوضى من خلال الجدول الآتي[2]:

صاحب المصطلح	المصطلح	المصطلح المعتمد	المرجع
صلاح فضل	Cohérence	الانسجام/ التماسك الدلالي	بلاغة الخطاب وعلم النص
سعد مصلوح	Cohérence	الحبك	نحو آجرومية للنص الشعري

[1]– المقصود بهذه المعايير العناصر التي صاغها "روبرت دي بوجراند" (R. de beaugrande) والتي تجعل من نص ما نصا وهي: الاتساق – الانسجام– المقبولية– القصدية– التناص– الإعلامية –المقامية.

[2]– لمزيد من التفصيل في هذه القضية، وتداخل مصطلح الانسجام مع الاتساق ينظر: ميلود مصطفى عاشور، إياد عبد الله، "فوضى تعريب مصطلحي (Cohesion– Cohérence) في لسانيات النص وتحليل الخطاب" مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، ع10، أفريل 2016، ص115. و رشيد برقان، آليات ترابط النص القرآني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء ط1، 2015، ص30

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

محمد خطابي	Cohérence	الاتساق/ الانسجام	لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب
إلهام أبو غزالة	Cohérence	التقارن	مدخل إلى علم لغة النص
تمام حسان	Cohérence	الالتحام/ التعليق	النص الخطاب الإجراء
أحمد عفيفي	Cohérence	التماسك/الانسجام/ الترابط المفهومي	نحو النص
إبراهيم الفقي	Cohérence	التماسك الدلالي	علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق
محمد الأخضر الصبيحي	Cohérence	الاتساق	مدخل إلى علم النص

جدول يوضح اختلاف الباحثين في نقل وترجمة المصطلح الأجنبي (Cohérence)

ومع هذا التشعب الظاهر إلا أن معظم الدراسات العربية الحديثة قد رست على اعتماد مصطلح "الانسجام" كمقابل للمصطلح الأجنبي "Cohérence" واعتماد مصطلح "اتساق" كمقابل للمصطلح الأجنبي "Cohésion".

إن مبحث الانسجام النصي من أكثر المفاهيم اللسانية الحديثة تشعبا وتعقيدا، نظرا لتعدد زوايا النظر والدراسة فيه، فهو يربط أحيانا بالبنية اللغوية، فيتخذ مفهوما ضيقا يتمحور حول الوسائل النصية واللغوية التي تشكل معمار النص وتحقق فيه معيار النصّية، ويتخذ في أحايين أخرى بعدا دلاليا وتداوليا حينما يربط البنيات الدلالية في النص بالعناصر المشكّلة للعملية التواصلية (مرسل – رسالة – مرسل إليه ...)، فيكون

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

مجموع الآليات التي يستنتجها متلقي النص/ الرسالة عند تفاعلها بالمقام، وذلك باعتبار أن الانسجام يبنيه المتلقي للنص بفعل العمليات الذهنية التي يقوم بها في سبيل الكشف عن شبكة العلائق التي يبنيها النص مع السياق من جهة، ومع بقية النصوص الأخرى السابقة وهذا وفق الطروحات الحديثة في هذا المجال.

إن هذا البسط الذي قدمناه آنفا نريد من خلاله الإشارة إلى أهم مقاربتين في تناول الانسجام النصي في الدراسات اللسانية الحديثة ونقصد بهما : المقاربة اللسانية للخطاب التي تربط الانسجام بالبنية اللغوية للنص والتي تزعمها (فان ديك –Van dijk) في مؤلفه (النص والسياق ،text and context) والمقاربة التداولية التي تربط البنية اللغوية للنص /الخطاب بالمتلقي والتي تزعمها كل من (براون ويول G.brown . G. Yule) في مؤلفهما (تحليل الخطاب، Discourse analysis).

يرى فان ديك (Van dijk) أن الانسجام أمر معطى في النص، وكي نفهم الأطروحة التي قدمها في مؤلفه، ينبغي أن نضعها في إطارها التاريخي والموضوعي الذي ظهرت فيه، ذلك أن ما جاء في مؤلفه المذكور سابقا ما هو إلا تطوير لما جاء في دراسته السابقة الموسومة بـــ : بعض مظاهر نحو النص some aspect of text grammars، حث قدم تصورا خاصا لجوانب الدراسة اللسانية للخطاب قائمة على زاويتين أو مبحثين رئيسيين هما (الدلالة والتداول)؛ فأدرج عناصر كالترابط والانسجام والبنيات الكلية ضمن المباحث الدلالية، وصنف بالمقابل السياق والأفعال الكلامية، والأفعال الكلامية الكلية، وتداوليات الخطاب ضمن المباحث التداولية وذلك وفق الشكل الآتي:

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

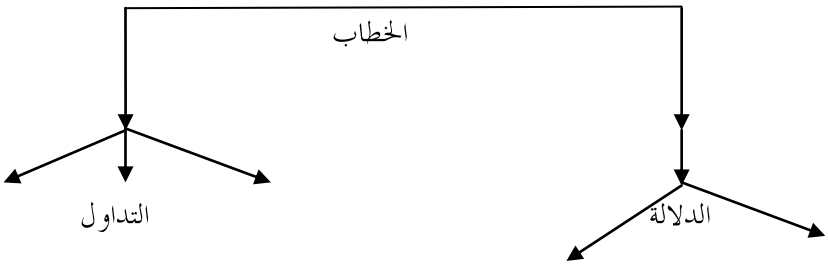

الترابط الانسجام البنيات الكلية السياقات تداولية الأفعال
والأفعال الكلامية الخطاب الكلامية الكلية

أما (براون ويول G.brown . G. Yule) فقد قامت مقاربتهما للانسجام النصي على رفض المحاولات السابقة خاصة تلك التي كانت تربط بين الانسجام والبنية اللغوية للنص، وتجعل منه معطى في النص، وهو ما رفضه الدارسان في مقاربتهما التي أولت عناية قصوى لمتلقي النص/ الخطاب وجعلته الفيصل في الحكم على نص ما هل هو منسجم أم لا بفعل العمليات العقلية والذهنية وخبراته السابقة في التعامل مع أشكال الخطاب المختلفة "فما يجعل نصا من النصوص منسجما لا صحة بنائه النحوي فقط، بل هناك عناصر تبني انسجامه تفوق حدوده النحوية والصرفية،وبالتالي يركز "براون ويول" على طريقة فهم/ تأويل الرسالة، التي ربطاها بسياق ورودها، وظروف إنتاجها، مع

[1]– عثمان أبو زنيد، نحو النص: إطار نظري ودراسات تطبيقية، علم الكتب الحديث، إربد– الأردن، ط1، 2009، ص 88

[2]– محمد خطابي، المرجع السابق، ص 28.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

الاهتمام بالقارئ أو المستمع الذي يحدد فهمه للرسالة مدى انسجامها"[1]، وهو المفهوم الذي اعتمده صاحب معجم المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب حين يرى أن الانسجام "ليس ثاويا في النص، بل إن المتلفّظ المشارك هو الذي يتولى بناءه (...) إن الحكم الذي يقضي بأن النصّ منسجم أو غير منسجم قد يتغيّر وفق الأفراد ووفق معرفتهم بالسياق والحجّة التي يخولونها للمتلفظ"[2].

إن الحكم على نص ما بأنه منسجم أو غير منسجم عملية مسندة في هذا الاتجاه إلى القارئ الذي يوظف– فضلا على معارفه اللغوية–معارف أخرى سياقية تداولية تمكنه من ربط البنية اللغوية للنص بالملابسات الخارجية المحيطة بإنتاجه واستقباله، وهذا هو الفرق الحقيقي بين الانسجام والاتساق كعاملين مهمين من عوامل تحقيق نصية النصوص؛ "فالانسجام أعمق من الاتّساق، كما أنه يغدو أعمق منه بحيث يتطّلب بناء الانسجام من المتلقي صرف الاهتمام جهة العلاقات الخفية التي تنظم النصّ وتولّده، بمعنى تجاوز رصد المتحقّق فعلا (أو غير المتحقّق) أي الاتّساق، إلى (الكامن)، ومن ثم وتأسيسا على هذا التمايز تصبح بعض المفاهيم مثل موضوع الخطاب والبنية الكلية والمعرفة الخلفية بمختلف مفاهيمها حشوا، إن أردنا توظيفها في مستوى اتّساق النص /الخطاب، والعكس صحيح، أي أن الوسائل التي يتجلّى بها اتساق النص عاجزة عن مقاربة (بناء) موضوع الخطاب والبنية الكليّة .."[3]، وهي بلا شك نظرة متأثرة إلى أبعد الحدود بنظرية تحليل

[1]– حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي: من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلفظ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط1، 2015م، ص 45

[2]– دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف ط، الجزائر، ط1، 2008م، ص 21

[3]– محمد خطابي، المرجع السابق، ص 5، 6.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

الخطاب ومفهوم الانسجام فيها كما رسمها كل من براون (G. Brown) ويول (G. Youle) في كتابهما "تحليل الخطاب"، وذلك حين أسندا مهمّة الحكم على الانسجام إلى المتلقّي بما يملكه من كفاءات نصيّة ومعرفة خلفية في تحديد عناصر الانسجام والحكم على نصّية النصّ، فتأويل المتلقّي هو الفيصل في تحديد النصّ المنسجم من غير المنسجم، وذلك من خلال عمليات ذهنية معقدة تقرّب الإنسان من الحاسوب.

إن هذا التصور الذي أقامه الباحثان يبرّر تركيزهما على "انسجام التأويل" بدل "انسجام الخطاب"، وهو إجراء يشبه إلى حدّ بعيد ما قصده "أيزر " (Wolfgang Iser) بالقارئ الضّمني في "عملية بناء المعنى وطرائق تفسير النصّ، حيث يفترض أن النصّ ينطوي على عدد من الفجوات هي بحاجة إلى رتق من أجل الوصول بالخطاب إلى غايته القصوى"[1].

وعليه يتضح لنا أن الانسجام النصّي مفهوم مركزي في النظرية اللسانية النصية الحديثة وأحد المعايير الأساسية التي تبنى عليها نصية النصوص، وإذا كان معيار الاتساق –كما هو معلوم– يرتكز أساسا على بحث كيفية اشتغال الوسائل والوسائط اللغوية في سبيل إبراز تماسك أجزاء النص بعضها ببعض على غرار الإحالة والتكرار والتضام وغيرها من الوسائل الشكلية، فإن الانسجام وفق التصورين السابقين يبدو أكثر عمقا وأكثر شمولية ذلك أنه يتعدى في حالات عديدة حدود البنية اللغوية والنسيج اللغوي للنص/ الخطاب إلى بحث عمليات التفاعل التي يقيمها النص مع متلقيه ومع سياقه الخارجي، ذلك أن الحكم على انسجام نص ما ليس مقصورا فقط على تناغم عناصره اللغوية وإنما كذلك بفعل شبكة العلاقات التي يقيمها النص داخليا وخارجيا؛ أي بالنظر

[1] – فتحي رزق الخوالدة، تحليل الخطاب الشعري ثنائية الاتساق والانسجام في ديوان احد عشر كوكبا، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006م، ص333.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

إلى الآليات الدلالية والتداولية التي يبنى عليها النص/ الخطاب وليس فقط بالنظر إلى العناصر المعجمية والتركيبية.

2. المدونة التفسيرية وانسجام النص القرآني:

تعد مدونة التفسير وعلوم القرآن أكثر مدونة تجلت فيها العناية بآليات ترابط النص واضحة، ذلك أن كثيرا من مباحث هذا الباب بنيت على محاولة إثبات إعجاز النص القرآني، وهي غاية اتخذت في كثير من أشكالها ووسائلها محاولات إثبات ترابط النص القرآني ونفي التفكك بين أجزائه والتناغم بين مواضيعه، ومحاولة البحث في أشكال بناء النص وأسرار الترتيب بين أجزائه. فإذا علمنا اختلاف ترتيب الآيات والسور بين التنزيل والتلاوة أمكننا بيسر الانتباه إلى إعجاز القرآن حقيقة، فكيف تنسجم أجزاء وآيات بعضها مع بعض ولم تنزل في وقت واحد ؟ وكيف تترابط آيات بعضها مع بعض ونحن نعلم اختلاف وقائعها وأسباب نزولها؟ ومع أن أمر الترتيب توقيفي إلا أن كثيرا من الباحثين شدهم البحث في هذه الزاوية ؛ أي البحث في أسرار ترتيب أجزاء القرآن وآياته، وبحث العلاقات المختلفة التي تجمع هذه الأجزاء بعضها ببعض، ولعل مبحث المناسبة خير دليل على هذا البحث الدؤوب في سبيل إثبات التلاحم بين الآيات والسور القرآنية.

إن هذه القضية — ترتيب أجزاء القرآن– وغيرها قد اتخذها بعض الطاعنين في بنية النص القرآني حجة لإثبات الخلل في النص القرآني، وغياب الصلة بين أجزائه وسوره، وتزعم هذا الأمر بعض المستشرقين الذين اتبع بعضهم بعض غلاة الشيعة بما بثوه من سوء ظنهم في قضايا التدوين أي تدوين النص وجمعه، وادعاء خفاء بعض أجزاء النص القرآني على المدونين، "فما جمعه وحفظه كما أنزله الله إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده (...) وعندهم مصحف فاطمة فيه مثل قرآننا ثلاث مرات وليس فيه من قرآننا

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

حرف واحد"[1] وغيرها من الشكوك التي بثها غلاتهم في النص القرآني، والتي لا يقف معظمها أمام النقد العلمي البنّاء بتتبع تاريخ التدوين وسيرة المدوّنين وجامعي القرآن، وقد شايع هؤلاء المستشرقين بعضُ الدارسين المحدثين الذين نفوا عن النص القرآني أي مظهر من مظاهر النصية المعروفة، فالنص القرآني عندهم ليس "نصا منسجما بالمعنى الحديث الذي يستلزم درجة كبيرة من التّرابط في مستوى التّأليف اللّغوي، فليس في القرآن نصّ مترابط ولا منسجم بل لا يوجد ذلك حتى في السّورة الواحدة"[2]، بل وتعدى بهم الأمر إلى اعتبار القرآن الكريم مجموعة من النصوص مجموعة في كتاب واحد قد تغيب بينها الروابط المطلوبة في بناء النصوص "من الواضح أن التحليل اللسانيّ للقرآن سيمكننا من الوصول إلى حقيقة بسيطة قلما انتبه إليها المختصون وهي أن القرآن ليس نصّا واحدا، فهو وإن كان كتابا أو مصحفا، فليس نصا منسجما بالمعنى اللّساني لمصطلح text والمشتقّ من النّسيج textile حيث يستلزم النّسج درجة كبيرة من التّرابط في مستوى التّأليف اللّغوي linguistic composition كالتّرابط cohesion والانسجام coherence وكذا في مستوى الوحدة الموضوعية بالإضافة إلى وحدة السّياق context وهذه العناصر نجدها غائبة في القرآن الكريم، بل وفي السورة الواحدة"[3].

[1]– محمد أحمد يوسف القاسم، المرجع السابق، ص 472.

[2]– عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل، نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ط1، 2013، ص129.

[3]– المرجع نفسه، ص 129.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

إن هذه المطاعن والشكوك التي حفت بالنص القرآني قد حدت بالدارسين والمفسرين قديمهم وحديثهم إلى محاولة إثبات التلاحم بين أجزاء النص القرآني[1]، حيث يعثر الدارس في مؤلفاتهم على كثير من المباحث العلمية والجهود الحقيقية التي تصب في خانة واحدة وهي إثبات نصية القرآن الكريم، وإثبات التلاحم والترابط بين أجزائه؛ آيات وسورا، ولعل مباحث المناسبة بما هي بحث في أوجه الصلات المعنوية بين الآيات والسور، وأسباب النزول بما هي ربط للنص القرآني بسياقه التاريخي، والمكي والمدني بما هي ربط للنص القرآني بالسياق الجغرافي إلا خير دليل على وعي المتقدمين والمتأخرين في هذا الباب بنصيّة القرآن، وسعي إلى إثبات البعد النصي فيه، بتبرير الصلات الخفية من جهة وتبرير علاقة النص مع السياق ومع المتلقي من جهة أخرى، وهي كلها مفاهيم يمكننا أن نطمئن إليها في سبيل إثبات البعد النصّي في المدونة التفسيرية من جهة، وكذا في إثبات اهتمام الدارسين ببحث آليات بناء النص القرآني وانسجامه من جهة أخرى.

3. آليات انسجام النص القرآني الدلالية عند الطاهر ابن عاشور في سورة الحديد:

سورة الحديد من أكثر السور القرآنية تجسيدا للخلاف بين المفسرين وعلماء القرآن في تحديد إطارها الجغرافي (المكي المدني)، ففيها من آراء العلماء ما جعلها بحق أكثر السور اختلافا بينهم في تحديد كونها مكية أم مدنية وفي هذا يقول ابن عاشور: "وفي كون هذه السورة مكية أم مدنية اختلاف قوي لم يختلف مثله في غيرها"[2]، فقد

[1]– نشير على سبيل المثال إلى صنيع الزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان، والرازي في تفسيره، وابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير، وسيد قطب في كتابه في ظلال القرآن وغيرها.

[2]– محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984م، ج 27، ص353

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

قال بعضهم[1]: إنها مكية، وقال بعضهم : إنها مدنية، وقال بعضهم إن صدرها مكي، وما بعده نزل بالمدينة، ولا يهمنا هذا الاختلاف بين علمائنا الأوائل في هذا المقام بقد ما تهمنا أمور ثلاثة، بناء عليها اخترنا هذه السورة في هذا البحث لإثبات الانسجام الدلالي في القرآن وفق الرؤية التفسيرية:

● قد علمنا أن في السورة آيات نزلت بمكة وأخرى نزلت بالمدينة، وقد علمنا من علمائنا السابقين الاختلافات الأسلوبية بين المكي والمدني، ذلك أن التفرقة في الأصل ليست مكانية بقدر ما هي دلالية "فالتفرقة هنا وإن توسلت بمعيار خارجي هو معيار المكان، فإنها لا تقع خارج النص ولا تجري مفصولة عنه. إنها تقع في داخله وتجري منطبقة على مضامينه؛ وهو ما جعل منها تفرقة دلالية تتيح للمفسر سبيل التعرف إلى هوية النص، والاقتراب من سيرورته التنزيلية"[2]، وقد اجتهد علماؤنا في إبراز أسس ومعايير التمييز بين الآيات المكية والمدنية، ولا يعنينا هذا الجهد كثيرا في هذا البحث، بل المهم عندنا هو الإجابة عن كيفيات تلاحم هذه الآيات في هذه السورة، وقد علمنا الفروق الأسلوبية والدلالية بين المكي والمدني.

● قد علمنا أيضا اختلاف الترتيبين في السورة : ترتيب النزول وترتيب التلاوة، فهل أدى هذا إلى الاختلال في السورة، وهو تساؤل لا يحتاج منا إلى إجابة بقدر ما نريد من ورائه بحث أشكال إعجاز الترتيب التوقيفي في النص القرآني وفق ما رآه ابن عاشور.

[1]– ذكر ابن عاشور آراء العلماء في تصنيف السورة، لمزيد من التفصيل ينظر : ج27، ص353 من تفسيره.

[2]– محمد الحيرش: النص وآليات الفهم في علوم القرآن: دراسة وفق التأويليات المعاصرة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2013م، ص215.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

● تميزت سورة الحديد بتنوع موضوعاتها وقضاياها كما سنرى، فهل أدى هذا التنوع إلى التفكك في بنيتها ووحدتها، وهل أدى هذا –كما قال المستشرقون– إلى غياب الوحدة المطلوبة في النص القرآني؟

وفي ضوء هذه المعطيات نحاول تتبع جهد ابن عاشور في إثبات الانسجام الدلالي في السورة وفق الآليات التي اتبعها، وقد وقف تركيزنا على مباحث المناسبة وموضوع الخطاب والعلاقات الدلالية:

1.3. موضوع الخطاب:

إن موضوع الخطاب ما هو في الحقيقة إلا عملية ذهنية يقوم بها متلقي النص للتمثيل الدلالي لمحتوى النص/ الخطاب، ولا فرق بينه وبين البنية الكلية للخطاب عند فان ديك (van dijk) إذ يشيران إلى " تمثيل دلالي إما لقضية ما أو مجموعة من القضايا أو لخطاب بأكمله"[1]، وهو بهذا حاصل اجتماع مجموعة من المواضيع الصغرى التي يمكن أن نعبر عنها في هذا المقام بالقضية، حيث تكون الصورة النهائية لموضوع الخطاب هي جماع القضايا التي يتكون منها النص، على أننا نشير هنا إلى أن القضية قد تتشكل من جملة واحدة من جمل النص أو من مجموعة متعددة من جمله، حيث يقوم المتلقي من خلال العمليات الذهنية والعقلية التي يتميز بها بإعادة بناء التصور الذهني النهائي للنص من خلال قواعد بناء الموضوعات (الحذف– البناء– التعميم) ويمكن أن نمثل هذه العملية وفق الشكل التالي: **مخطط يوضح التصور الذهني لموضوع الخطاب**

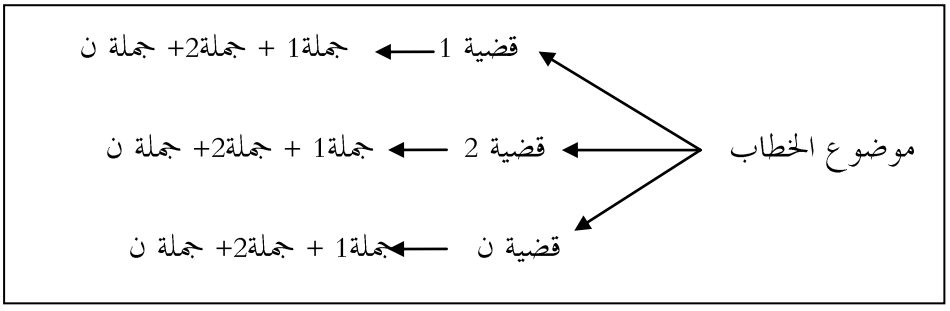

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

وإذا عدنا إلى جهود علمائنا في المدونة التفسيرية، فإننا نجد هذه العملية الذهنية حاضرة حيث يعني موضوع الخطاب عندهم "بنية دلالية تصب فيها مجموعة من الآيات بتضافر مستمر عبر متواليات قد تطول أو تقصر حسب ما يتطلبه الخطاب من إيجاز أو إطناب أو شرح أو تمطيط"[1]، فبناء السورة وفق هذا التصور هو جماع القضايا التي تتشكل في الحقيقة من مجموعة من الآيات القرآنية، على أننا نشير إلى أن المفسرين لم يشيروا صراحة إلى هذا الإجراء بهذا المصطلح، وإنما عبروا عنه بمصطلحات متعددة قد تختلف وتتنوع من مفسر إلى آخر، إلا أن مفهومها مشترك، وذلك في محاولتهم تحديد موضوعات السورة القرآنية والبحث عن العلاقات التي تجمع هذه الموضوعات/ القضايا "وإذا رمنا البحث في موضوع النص/ الخطاب لدى المفسرين فسنجد إجراء مفهومه دون لفظه، لكن تحليلاتهم وتفسيراتهم تكشف عن وجود هذا المفهوم، وأكثر ما يتضح لنا ذلك عند حديثهم عن أغراض السور"[2]، وهو العمل الذي قام به محمد الطاهر ابن عاشور في تفسير كل السور، فهو منهج سطره المفسر مند البداية حين أشار إلى أنه سينطلق في تفسير السور من تحديد مواضيعها التي تتأسس عليها.

وبالعودة إلى سورة "الحديد" فإننا نجده في مطلع تفسيره يحدد موضوعات السورة بقوله:" الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة : التذكير بجلال الله تعالى وصفاته العظيمة وسعة قدرته وملكوته (...) والتنبيه لما في القرآن من الهدي وسبل النجاة (...) والتحريض على الإنفاق في سبيل الله (...) والتخلص إلى ما أعد الله للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خير وضد ذلك للمنافقين والمنافقات (...) وتحذير المسلمين من الوقوع

[1]– محمد خطابي، المرجع السابق، ص180.

[1]– نسيم بوغرزة، "الانسجام التصّي في ضوء موضوع الخطاب" مجلة الناص، كلية الآداب واللغات، جامعة جيجل، منشورات جامعة جيجل، ع20، 2016، ص08.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

في مهواة قساوة القلوب (...) والتذكير بالبعث والدعوة إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية، والأمر بالصبر على النوائب والتنويه بحكمة إرسال الرسل (...) والإيماء إلى فضل الجهاد في سبيل الله وتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام (...) ثم أهاب بالمسلمين أن يخلصوا الإيمان تعريضا بالمنافقين ..."[1]، فهذه هي القضايا الأساسية التي بنيت عليها السورة وكل قضية –كما سنرى– تتألف من مجموعة من الآيات الكريمة يمكن أن نبين صورتها وفق الشكل الآتي:

[1]– محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ج 27، ص 355، 356.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

موضوعات سورة الحديد

- القضية 1: التذكير بجلال الله تعالى وصفاته العظيمة وسعة قدرته وملكوته (1_8).
- القضية 2: والتنبيه لما في القرآن من الهدي وسبل النجاة (الآية 9)
- القضية 3: والتحريض على الإنفاق في سبيل الله (الآيتان 10_11)
- القضية 4: والتخلص إلى ما أعد الله للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خير وضد ذلك للمنافقين والمنافقات (الآيات 12_15)
- القضية 5: تحذير المسلمين من الوقوع في مهواة قساوة القلوب (الآية 16).
- القضية 6: والتذكير بالبعث (الآيات 17– 19).
- القضية 7: الدعوة إلى عدم الاكتراث بالحياة الفانية (الآيتان 20–21).
- القضية 8: الأمر بالصبر على النوائب (الآيتان 22– 23)
- القضية 9: الإيماء إلى فضل الجهاد (الآية 24)
- القضية 10: وتنظير رسالة ص برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام (الآيتان 25_26)
- القضية 11: الدعوة إلى إخلاص الإيمان والتعريض بالمنافقين (الآيتان 28–29).

مخطط يوضح موضوعات سورة الحديد

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

قد لاحظنا من خلال هذا المخطط تعدد أغراض السورة؛ حيث تخللت الآيات المدنية الآيات المكية، إلا أن الذي يهمنا أكثر في هذا السياق هو كيف اجتمعت هذه المواضيع في هذه السورة ؟

تنوعت أشكال الربط الدلالي بين هذه الأغراض مما جعل الانتقال من غرض/ قضية إلى غرض / قضية أخرى انتقالا سلسا، وقد حاول ابن عاشور إبراز هذا الانتقال من خلال مجموعة من الآليات؛ فتارة من خلال حسن التخلص كما هو الشأن بين البنيتين النصيتين الأولى والثانية؛ أي بين القضية الأولى التي تنص على التذكير بجلال الله تعالى وصفاته العظيمة وسعة قدرته وملكوته، وبين القضية الثانية التي تنص على التنبيه لما في القرآن من الهدي وسبل النجاة، ولا شك أن الآيات التي تمثل القضية الأولى هي آيات مكية بالاتفاق، والآيات التي تمثل القضية الثانية آيات مدنية، وفي هذا يقول ابن عاشور: " والخطاب هنا وإن كان صالحا لتقرير ما أفادته جملة (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ) ولكن أسلوب النظم وما عطف على هذه الجملة يقتضيان أن تكون استئنافا انتقاليا هو من حسن التخلص إلى خطاب المسلمين، ولا تفوته الدلالة على تقرير ما قبله لأن التقرير يحصل من انتساب المعنيين: معنى الجملة السابقة ومعنى هذه الجملة الموالية"[1]، فقد أورد ابن عاشور هذا الاستنتاج في معرض تفسيره للآية التاسعة التي تمثل وحدها البنية النصية الثانية في سورة الحديد وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ۹﴾[الحديد: 9] فنرى أن بين البنيتين النصيتين رابط مهم من جهتين: الأولى أن فيها تقرير لبعض ما جاء في البنية النصية الأولى، والثاني أنها تمثيل لحسن التخلص إلى غرض ثان في السورة.

[1]– محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ج27، ص371.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

ويذهب ابن عاشور إلى أبعد من هذا في إبراز الترابط الدلالي بين البنيتين حين يعد هذه الآية التي تمثل موضوع "التنبيه لما في القرآن من الهدي" تأكيدا لما جاء في البنية الأولى، وبيانا لها وتعليلا وتذييلا وتخلصا إلى غرض جديد حيث يقول:" فهذه الجملة بموقعها ومعناها وعلتها وما عطف عليها أفادت بيانا وتأكيدا وتعليلا وتذييلا وحسن تخلص لغرض جديد وهي أغراض جمعتها جمعا بلغ حد الإيجاز في الإعجاز"[1]، فالبيان والتأكيد والتعليل والتذييل علاقات مرتبطة بما سبق من الآيات، في حين يرتبط حسن التخلص بالآية الموالية، وهنا يظهر لنا جليا وعي ابن عاشور بأهمية المستوى الدلالي في إبراز التلاحم المطلوب بين آيات القرآن، وبالتالي إظهار الإعجاز في النص القرآني.

أما في الانتقال من الغرض الثاني إلى الغرض الثالث فقد استعان بما يقدمه علم المناسبة من بحث في أشكال الربط الدلالي بين الآيات القرآنية،، حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ١٠﴾ [الحديد: 10]﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ١٠﴾ [الحديد: 10] "ووجه إلحاق هذه الآية وهي مدنية بالمكّي من السورة مناسبة استيعاب أحوال الممسكين عن الإنفاق من الكفار والمؤمنين تعريضا بالتحذير من خصال أهل الكفر إذ قد سبقها بقوله (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين

[1]– المصدر نفسه، ج27، ص 371.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

فيه)"[1]، فقد جاءت الآية تحذيرا من الاتصاف بخصال أهل الكفر التي ذكرها سابقا في الآيات المكية .

وقد تأخذ الصلة بين أغراض السورة منحى آخر ووسيلة أخرى وهي العلاقات الدلالية كما هو الشأن حين استثمر علاقة التعليل في تبرير الانتقال من البنية النصية الرابعة إلى البنية النصية الخامسة حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ١٧﴾ [الحديد: 17] التي تمثل البنية النصية الرابعة ما يلي:" فالجملة بمنزلة التعليل لجملة (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلى قوله (فقست قلوبهم) لما تضمنته تلك من التحريض على الخشوع لذكر الله، ولكن هذه بمنزلة العلة فصلت و لم تعطف"[2]، وعلى هذا المنوال يواصل ابن عاشور تفسير آليات الربط الدلالي في الانتقال من موضوع أو غرض إلى موضوع أو غرض آخر أو قل من بنية نصية إلى بنية أخرى، بما يوحي بوعي المفسر بضرورة وجود وسيلة يتم بها تبرير الانتقال من موضوع إلى آخر.

2.3. المناسبة بين الآيات:

يجمع الدارسون اليوم على أن مبحث المناسبة هو أحد أهم تجليات الوعي المبكر بالبعد النصي في القرآن الكريم، ذلك أنه يقوم في أبسط إجراءاته على تتبع العلاقات المعنوية والشكلية بين الآيات والسور في سبيل إثبات الصلة بينها وعدم التفكك، خاصة عند الانتقال من موضوع إلى آخر ومن سورة إلى أخرى، فقد اجتهد الدارسون في بيان أوجه العلاقات بين البنيات النصية المختلفة في القرآن الكريم، وعلى هذا فإن علم المناسبة كما وصفه البقاعي (ت885 هـــ) " علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سرّ البلاغة

[1]– محمد الطاهر ابن عاشور المصدر السابق، ج27، ص 372.

[2]– المصدر نفسه، ج27، ص 393، 394..

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته إلى علم التفسير نسبة علم البيان إلى علم النحو "[1]، وهي نفس الفكرة تقريبا التي قصدها بدر الدين الزركشي (ت 794ه) قبله حين أشار إلى أن علم المناسبة "أمر معقول، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها ومرجعها –والله أعلم– إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقليّ أو حسيّ أو خياليّ؛ وغير ذلك من أنواع العلاقات. أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلّة والمعلول، والنظيرين والضدّين، ونحوه، أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر"[2]، فقد حدد أوجه العلاقات بين الآيات والسور القرآنية، وهو بهذا يدرك أن ليس في النص القرآني تفكك وتنافر، وإنما يطلب بين الآيات مناسبة من وجه من الوجوه كالعام والخاص والسبب والمسبب والعلة والمعلول وغيرها مما ينسجم وطبيعة الآيات القرآنية.

وقد اهتم ببيان أوجه المناسبة في القرآن عدد كبير من الدارسين والمفسرين القدامى والمحدثين وعلى رأسهم: أبو بكر النيسابوري (ت318هـ)، وفخر الدين الرازي (ت606هـ)، وبدر الدين الزركشي (ت794هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت911هـ) ومن المحدثين محمد الطاهر ابن عاشور وسيد قطب وغيرهم ممن حاول تتبع

[1]– البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دط، 1984م، ج1، ص6.

[2]– بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، مصر، دط، دت، ج1، ص35.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

العلاقات الجامعة بين آيات القرآن وسوره بهدف نفي التنافر والتفكك بين أجزاء الذكر الحكيم.

وغني عن الذكر أن هذا المبحث اللطيف لم يلق كل الترحيب من علمائنا الأوائل فقد عارضه بعضهم لما فيه من التكلّف في تتبع الصلات في مواضع لا يطلب فيها أصلا مناسبة، ومنهم العزّ بن عبد السلام (ت660هـ) الذي اشترط أن تكون المواضع التي يبحث فيها عن المناسبة متحدة، فلا تطلب المناسبة في المقاطع المنفصلة حيث يقول: "واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، ويتشبّث بعضه ببعض لئلا يكون مقطعا مبترا، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متّحد فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط بذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلاّ بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه"[1]، فالأفضل تجنب الخوض في طلب المناسبة بين آي القرآن إذا لم تكن في مواضع بيّنة متصل بعضها ببعض، فيكون حينها تفسير المناسبة أقرب إلى تقبل القارئ وفهمه، أما في المواضع المنفصلة والغامضة التي لا تظهر فيها العلاقة إلا بتكلف واجتهاد من المفسر فإن العز بن عبد السلام (ت660هـ) يرى ضرورة صيانة النص القرآني من هذا البحث الذي لا طائل من ورائه، وقد يضر بالنص أكثر مما يفيده.

وذهب الإمام الشوكاني (ت1250هـ) تقريبا نفس المذهب حين رفض بحث المناسبة في المواضع الغامضة إذ يقول: "اعلم أنّ كثيرا من المفسّرين جاؤوا بعلم متكلّف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فنّ لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلّم بمحض الرأي المنهيّ عنه في الأمور المتعلّقة بكتاب الله سبحانه،

[1] – العز بن عبد السلام، كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، تح: محمد بن الحسن اسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، دط.، 1985م، ص221.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا التّرتيب الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلّفات وتعسّفات يتبرّأ منها الإنصاف، ويتنزّه منها كلام البلغاء فضلا عن كلام الربّ سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدمه حسبما ذكره في خطبته، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن القرآن ما زال ينزل مفرقا على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله (ص) إلى أن قبضه الله عز وجل إليه"[1].

ومهما قيل عن علم المناسبة بين مؤيد له ورافض للتكلف الذي يكتنف الباحث فيه في مواضع خفاء الصلة بين الآيات والسور، فإنه يبقى مبحثا لطيفا استطاع من خلاله المفسرون تبرير وجه اجتماع الآيات والسور في القرآن بهذه الصورة العجيبة واللطيفة، فإذا علمنا أن قضية الترتيب قضية توقيفية، فهذا بلا شك يبقي البحث عن أسرار هذا الترتيب عملا مشروعا، ثم إن هذا البحث ينبئ عن تلك النظرة الشمولية التي تعامل بها هؤلاء المفسرون مع النص القرآني بما ينفي الطابع التجزيئي الذي طبع الممارسة العربية عموما سواء في التنظير اللغوي أو النقدي؛ إذ غالبا ما يقف النظر العربي القديم في حدود الآية والآيتين في التفسير، والبيت والبيتين في النقد وغيرها مما يسترعي ضرورة الانتباه إلى هذه الآلية الدلالية المتجذرة في تاريخ تراثنا التفسيري والتي تنبئ بوعي المفسرين بالطابع الكلي للنص القرآني وكأنه كالكلمة الواحدة كما عبر عن ذلك الزركشي (ت791هـ)[2].

[1]– الشوكاني، فتح القدير، مراجعة: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2007م، ص50.
[2]– ينظر: بدر الدين الزركشي، المصدر السابق، ج1، 35.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

لم يغفل ابن عاشور في سورة الحديد هذا المبحث اللطيف، بل اتخذه دخلا لتبرير الانسجام الدلالي في السورة، حيث وظفه في مواضع يبدو فيها الانقطاع الدلالي بين البنيات النصية نظرا لغياب الرابط الشكلي أحيانا مما قد يوحي بالقطيعة الدلالية بين البنيات النصية أو الآيات القرآنية، ومن صور المناسبة التي رصدها ابن عاشور في هذه السورة ما يلي:

1.2.3. المناسبة بين اسم السورة ومضمونها:

لاشك أن بين عنوان السورة واسمها وبين مضمونها علاقة وطيدة جدا، إذ ذهب كثير من الدارسين إلى أن تسمية السور بالأسماء التي هي عليه الآن كان تأسيا بما كان عند العرب من إطلاق المسميات على الأشياء بما هو فيها أو غالب عليها، أي كانت العرب تأخذ أسماءها من غالب أو "نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خَلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها"[1]، وهكذا تم تسمية سورة البقرة بأهم قصة فيها، وتسمية سورة يوسف بالقصة التي وردت فيها وقس على هذا بقية السور، وهذا الذي نجده في هذه السورة والذي قرره ابن عاشور في تفسيره، فإنما سميت السورة بهذا الاسم "الحديد" لورود لفظ الحديد فيها، وهو أهم شيء فيها "إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته، وإلهام الناس صنعه لتحصل منافع لتأييد الدين ودفاع المعتدين"[2]، ومع أن لفظ الحديد قد ورد سابقا في سورة الكهف التي نزلت قبلها في قوله تعالى " ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ" إلا أن السورة حينها لم تسم بهذا الاسم لورود قصة أهم منها فيها، وهي قصة أهل الكهف، وهو ما يعزز ما ذكرنا سابق من أن أسماء السور جرى فيها ما

[1]– بدر الدين الزركشي، المصدر السابق، ج1، ص270.

[2]– محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ج27، ص 353.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

جرى في عادات العرب من تسمية الشيء بما اشتهر فيه، أو بأهم شيء فيه، وفي هذا يقول ابن عاشور:" وهذا اللفظ وإن ذكر في سورة الكهف في قوله تعالى (آتوني زبر الحديد) وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تسم به، لأنها سميت باسم الكهف للاعتناء بقصة أهل الكهف"[1].

2.2.3. المناسبة بين فاتحة السورة ومقاصدها:

يقوم هذا النوع من المناسبات على بحث الارتباط الدلالي بين مطلع السورة وبين المقاصد العامة التي ترمي إليها السورة، ونقف عند ابن عاشور في تفسيره لمطلع السورة إذ يقول: "افتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق بجلاله، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية (...) وأتبع هذا الاسم بصفات ربانية تدل على كمال الله تعالى وتنزّهه عن النقص كما يأتي بيانه فكانت هذه الفاتحة براعة استهلال لهذه السورة"[2]، فنلاحظ العلاقة الظاهرة ين مطلع السورة المفتتحة بالتسبيح المقتضية معنى تنزيه المولى عز وجل، خاصة وقد جاءت هذه الصيغة ماضية فلا تعني غير التنزيه، فناسب ذلك ما سيأتي من ذكر صفات المولى عز وجل .

3.2.3. المناسبة بين الآية والآية التي قبلها (مناسبة ترتيب الآيات):

يُعنى الباحث في هذا النوع من المناسبات باكتشاف آليات ترابط الآيات مع بعضها بحيث تبدو كبنية واحدة، وأمثلته كثيرة في هذه السورة ومن ذلك ما بينه ابن عاشور في المناسبة بين الآيتين الخامسة والسادسة أي بين قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: 5] وبين قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي

[1]– محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ج27، ص 353.

[2]– المصدر نفسه، ج27، ص 356، 357.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ٦﴾ [الحديد: 6] حيث يقول ابن عاشور: " مناسبة ذكر هذه الجملة أن تقدير الليل والنهار وتعاقبهما من التصرفات الإلهية المشاهدة في أحوال السماوات والأرض وملابسات أحوال الإنسان"[1]؛ فوجه مناسبة ذكر أحوال الليل والنهار وتقلبهما، في هذا الموضع تابع لما ذكر سابقا في الآية السابقة من ذكر السموات والأرض وبينها صلة وثيقة كما يرى ابن عاشور، ذلك أن تغير الليل والنهار وتقلبهما من تقدير المولى عز وجل المشاهد في الأرض والسماء.

ونفس الأمر بالنسبة للعلاقة بين الآيتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، أي في قوله: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ١٨﴾ [الحديد: 18] وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ١٩﴾ [الحديد: 19] حيث يقول ابن عاشور: " لما ذكر فضل المتصدقين وكان من المؤمنين من لا مال له ليتصدق منه أعقب ذكر المتصدقين ببيان فضل المؤمنين مطلقا، وهو شامل لمن يستطيع أن يتصدق ومن لا يستطيع"[2]، فقد وردت هذه الآية في هذا الموضع بمناسبة ذكر المتصدقين، فلما كان من المؤمنين معسرين لا يقدرون على التصدق بمالهم، أعقب ذلك بذكر المؤمنين إجمالا من تصدق منهم ومن لم يتصدق، وكأن في ذلك تخفيفا على المعسرين من المؤمنين. وعلى هذا المنوال يسير ابن عاشور في تبرير اجتماع الآيات القرآنية بعضها مع بعض من أجل إبراز التلاحم بين آيات النص القرآني وإثبات الانسجام ونفي التنافر بين بنياته.

[1]– محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ج27، ص 366.

[2]– المصدر نفسه، ج27، ص 396.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

3.3. العلاقات الدلالية:

لم يهمل مفسرو القرآن بحث العلاقات الدلالية في ثنايا النص القرآني، وهي خير دليل على وجود صلة معنوية بين الآيات والمقاطع القرآنية، ولا يخلو نص منسجم من هذه العلاقات ذلك أنها تحقق" تماسكا دلاليّا بين بنياته، كما لها دور الإخبار من أجل تحقيق درجة معينة من التّواصل"[1]، وهي الفكرة التي أصر عليها "روبرت دي بوجراند R. de beaugrande حين عدّ وجود علاقات دلالية في ثنايا النص مؤشرا هاما على انسجام النصوص "فهو معيار يختص بالاستمرارية المتحققة في عالم النص textual world، ونعني بها الاستمرارية الدلالية التي تتجلّى في منظومة القيم concept والعلاقات relations الرابطة بين هذه المفاهيم "[2]، فهي تحقق الصلة على المستوى العميق للنصوص بما يضمن طابع الاستمرارية فيها، وبالتالي فإن العلاقات الدلالية في المستوى العميق للنص عامل مساهم في انسجام النص/ الخطاب، ذلك أنها المعيار الذي يضمن الاستمرارية الدلالية على مستوى البنية النصية، ومعيار الانسجام بلا شك يتطلب من الدارس إيجاد شبكة العلاقات التي يقيمها النص على المستوى العميق، فضلا عن إيجاد العلاقات الشكلية على المستوى السطحي الظاهري له؛ " فإن تحديد العلاقة بين المفاهيم والموضوعات وديناميةالتفاعل مطلب يستدعيه معيار الانسجام، بل يلح عليه، وبخاصة أن لكل نص نمطا معينا من الترتيب والتنظيم، فله نقطة بداية ونقطة نهاية، وبينها مراحل من النمو والتفاعل

[1]– بن الدين بخولة، الاتساق والانسجام النصي الآليات والروابط، دار التنوير، الجزائر، دط، 2004م، ص 34.

[2]– جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، دط، 1998م، 141.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

القائم على التدرج والتنامي، وتوالد الآخر من السابق وامتداده له وتهيئته للاحق"[1]، وهي القضية التي لم يغفلها مفسرو القرآن حين عنوا بتحديد شبكة العلاقات الدلالية بين الآيات القرآنية. على أننا نشير إلى أن أكثر هذه العلاقات قد طرحت ضمن تصنيفين كبيرين " أولهما التصنيف البديعي الذي هيمن على دارسي الشعر، وثانيهما التصنيف ضمن علم المناسبة الذي انتعش مع العلوم التي حملت على عاتقها البحث في أسرار الإعجاز البياني للقرآن الكريم"[2].

لم يغفل ابن عاشور التنويه إلى دور العلاقات الدلالية في تماسك النص القرآني، حيث عمل في كل مرة على إبراز العلاقة المعنوية التي تجمع بين الآيات أو بين جمل الآية الواحدة ويمكن أن نبين أهم العلاقات الدلالية الواردة في سورة الحديد كما صورها ابن عاشور فيما يلي:

1.3.3. البيان والتفسير:

يمكن أن نوضح علاقة البيان والتفسير انطلاقا من مفهوم البيان في علم النحو الذي يعني " علاقة بين كلمتين أو جملتين تقومان مقام المفرد، بحيث تكون الجملة الثانية بمثابة الجملة الأولى"[3]،وعليه فإن علاقة البيان والتفسير تقوم بين جملتين، تقوم الثانية مقام المفسر والموضح والمبين لإبهام حاصل في الجملة الأولى فهي " علاقة تخص الآيات فيما بينها، في غير ما حاجة إلى رابط شكلي، مما يعني أن هناك ارتباطا معنويا بيانيا خفيا بين

[1]– فخرية غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني : دراسة نصية في السور الموسومة بالعتاق الأول، عالم الكتب الحديث، إربد ط1، 2017، ص23، 24.

[2]– رشيد برقان، المرجع السابق، ص 161.

[3]– رشيد برقان، المرجع السابق، ص 183..

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

اللاحق المبيِّن والسّابق المبيَّن، وبالتالي يعتبر اللاحق دائما رافعا للإبهام أو الالتباس الذي يلحق السابق، كما قد يكون تفسيرا له"[1].

تعد علاقة البيان والتفسير من أكثر العلاقات الدلالية ورودا في القرآن، واهتماما من طرف المفسرين وعلماء القرآن، و لم يشذ ابن عاشور عن هذا في تفسيره للسورة التي بين أيدينا، حيث نراه يركز كثيرا على هذه العلاقة لما لها من فعالية في إبراز التلاحم المنشود في النص القرآني، حيث يبرز ذلك مثلا في الربط الدلالي الذي أقامه بين مجموعة من الآيات ساهمت هذه العلاقة في ترابطها حيث جعل قوله تعالى: "**لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ**" من الآية الثانية أمرا مجملا جاء بيانه في مواضع لاحقة من السورة، حيث ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ٣﴾ [الحديد: 3] حيث يعلق ابن عاشور على ذلك بقوله: "استئناف في سياق تبيين أن له ملك السماوات والأرض بأن ملكه دائم في عموم الأزمان وتصرف فيهما في كل حال، إذ هو الأول الأزلي، وأنه مستمر من قبل وجود كل محدث ومن بعد فنائه إذ الله هو الباقي بعد فناء السماوات والأرض"[2]، فقد جاءت الآية الثالثة كما يرى –ابن عاشور– مبينة لملكه تعالى السموات والأرض، بذكر شكل من أشكال ملكه تعالى وهو كونه الظاهر والباطن والأول والآخر، ونفس الشيء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا

[2]– سعيد تومي: "المستوى النصّي في الخطاب القرآني مقاربة اسلوبية لسورة الملك" مجلة دراسات أدبية مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، ع15، أوت 2013، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ص 134.

[2]– محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ج27، ص 359.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ٤﴾[الحديد: 4]، حيث جاءت الآية كذلك مبينة لمظاهر ملكوته تعالى حيث يقول ابن عاشور: "وموقع هذه الجملة كموقع جملة (هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ) الآية فهذا استئناف ثان مفيد الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية ليقلعوا عن الإشراك به ويفيد أيضا بيانا لمضمون جملة (لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وجملة (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فإن الذي خلق السماوات والأرض قادر على عظيم الإبداع"[1]، فإن العلاقة المعنوية بين هذه الآية وما سبقها هي كونها في سياق واحد تبين أشكال ملكه تعالى وقدرته، فما خلقُ السموات والأرض، والاستواء على العرش (جل جلاله)، وعلمه بما في السموات والأرض وما يجري فيها، إلا مظاهر لعظيم قدرته وتجلٍ لملكه السماوات والأرضَ ويمكن أن نمثل هذه العلاقة وفق الشكل الآتي:

الله له ملك السموات والأرض } بيان المعنى – كونه الأول والآخر والظاهر والباطن
وهو على كل شي قدير } وتفسيره ⇦ – خلق السماوات والأرض في ستة أيام، الاستواء على العرش، علمه بما في الأرض، إلى الله تصير الأمور..

2.3.3. التعليل:

يعرفه الشريف الجرجاني (ت 816هـ) بقوله: "التعليل هو انتقال الذهن من المؤثر إلى الأثر، كانتقال الذهن من النار إلى الدخان (...) وقيل التعليل هو إظهار علية الشيء سواء كانت تامة أم ناقصة، والصواب أن التعليل هو تقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر "[2]، وهو مفهوم فلسفي منطقي بهذا الوصف، وينبغي أن نشير إلى أن هذا المفهوم قد تجاذبته ميادين معرفية مختلفة كالفلسفة والمنطق، والبلاغة، والنحو، وقد استثمر المفسرون هذه

[1]– المصدر نفسه، ج27، ص 364، 365.

[2]– الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، دط، د ت، ص55.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

العلاقة بأشكالها المختلفة؛ كالسبب والترتب، والعلة، لتفسير وتبرير الترابط بين أجزاء النص القرآني " لقد استثمر المفسرون التعليل وكل إبدالاته بوصفه علاقة ترتكز على انتقال الذهن من عنصر مؤثر إلى عنصر متأثر أو بالعكس، في عملية الربط بين الجمل لكي يتأتى لهم توضيح معنى الآيات وتأكيد كيفية اشتغال الذهن أثناء عملية الفهم، بحيث يمكننا القول إن هذه العملية ترتكز على إبراز آليات التلاحم باعتبارها عمليات أساسية لفتح مغالق النص الكريم وتيسير تلقي معناه"[1].

تتخذ هذه العلاقة في النص القرآني صورا مختلفة، وتتوسل بوسائل لغوية كثيرة، وهي كما أشرنا سابقا من أهم العلاقات المسهمة في تلاحم النص القرآني وانسجامه، ومن صورها في هذه السورة والتي بينها ابن عاشور في تفسيره ما كان في الآية الثانية من قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ٢﴾ [الحديد: 2] فقد جاءت الآية مبينة لعلة تسبيح الموجودات لله سبحانه؛ فمن كان له ملك السماوات والأرض فهو أهل للتسبيح والحمد، حيث يقول ابن عاشور في هذا الشأن: "ومضمون هذه الجملة يؤذن بتعليل تسبيح الله تعالى لأن من له ملك العوالم العليا والعالم الدنيوي حقيق بأن يعرف الناس صفات كماله"[2]، ونفس الأمر بالنسبة لقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ١٧﴾ [الحديد: 17] فهي في الواقع تعليل لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ١٦﴾ [الحديد: 16] حيث يقول ابن عاشور: "فالجملة بمنزلة التعليل لجملة (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلى قوله

[1]– رشيد برقان، المرجع السابق، ص232

[2]– محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ج27، ص 358.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

(فقست قلوبهم) لما تضمنته تلك من التحريض على الخشوع لذكر الله"[1]؛ فإن كون الله يحي الأرض بعد موتها، هو مدعاة لتخشع قلوب الذين آمنوا لذكره وما أنزله من الحق.

3.3.3. الإجمال والتفصيل:

قد تتخذ هذه العلاقة صورتين عند المفسرين: الإجمال ثم بعده التفصيل، أو التفصيل الذي يعقبه الإجمال، وهي في كلا الحالتين تشير إلى علاقة بين الآيات في السورة الواحدة، أو في سور مختلفة يقع في موضع ما ذكر المعنى مجملا أو مفصلا ويأتي في موضع آخر من نفس السورة أو في سورة أخرى إجمال المعنى أو تفصيله، وهو ما عبر عنه الدارسون بقولهم: " إيراد المعنى على سبيل الإجمال ثم تفصيله أو تفسيره أو تخصيصه"[2]، أو العكس إذا كانت العلاقة إجمال بعد تفصيل، وقد عني بها المفسرون كثيرا في تعاملهم مع آي القرآن الكريم، ومن أمثلة هذه العلاقة في سورة الحديد ما استنتجه ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ٢٦﴾ [الحديد: 26] حيث يشير إلى أن العلاقة التي ربطت هذه الآية بما سبقها هي علاقة التفصيل بعد الإجمال، فإذا هي الخيط الدلالي الذي يجمع بينها وبين قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ٢٥﴾ [الحديد: 25] حيث يقول في شأنها: "معطوف على جملة (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ) عطف الخاص على العام، لما أريد تفصيلٌ لإجماله تفصيلا يسجل به انحراف المشركين من العرب والضالين من اليهود عن

[1] – المصدر نفسه، ج27، ص393.

[2] – جميل عبد المجيد، المرجع السابق، ص146.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

مناهج أبويهما نوح وإبراهيم"[1]، فإنه فصّل في المرسلين بذكر إبراهيم ونوح لينبه المشركين واليهود الضالين إلى الحيف الذي وقعوا فيه، فإن كلمة "المرسلين" قد دلت على كون عام مجمل بينما جاء تفصيل الكلمة في ذكر بعض المرسلين، وهنا تبرز وظيفة هذه العلاقة في تحقيق طابع الاستمرارية في النص "ولعل هذا من المهام المركزية للترابط حيث يتكفل الربط بين المجمل والتفصيل في لحم النص وتبديد الإبهام الذي كان يحيط بعملية الفهم"[2].

هذه بعض العلاقات الدلالية التي استنتجها ابن عاشور في معرض تفسيره للسورة، وإذا كنا لم نأت على كل العلاقات التي ذكرها المفسر في تفسيره، فلأن المقام لا يكفي التفصيل فيها، وهذا لا يمنعنا من تعدادها، فمن ذلك علاقة الضد وعلاقة الاستطراد، والتذييل وغيرها، وهي في مجموعها علاقات تبرر الانتقال من آية إلى أخرى من جهة، وتربط أجزاء النص دلاليا من جهة أخرى، وقد تنبه المفسرون في وقت مبكر إلى هذه الآلية مدفوعين في ذلك بدافع نفي التفكك عن النص القرآني، ومدفوعين أيضا بمحاولة إيجاد مبررات كافية للانتقال من بنية إلى بنية ومن آية إلى أخرى، وذلك ما نجده ماثلا بين أيدينا عند الطاهر ابن عاشور.

الخاتمـــة:

وفي ختام عرضنا لهذا البحث يمكننا أن نستنتج المهمة التي ألقاها محمد الطاهر ابن عاشور على عاتقه حين سعى بكل جهده إلى إبراز إعجاز النص القرآني من خلال تتبع أشكال الترابط والتماسك والانسجام فيه، وإن اختلفت الآليات التي توسل بها من أجل إثبات ذلك، إلا أنه قد نجح إلى حد بعيد في إثبات هذا الترابط من خلال مبحث المناسبة

[1]- محمد الطاهر ابن عاشور، المصدر السابق، ص419.

[2]- رشيد برقان، المرجع السابق، ص203

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

والعلاقات المنبثقة منها، وكذا من خلال الآليات التي استنتجها في الربط بين البنيات النصية في السورة ومواضيعها، بما يجعلنا نتأكد مرة أخرى الوعي الكبير الذي تعامل به ابن عاشور مع النص القرآني حين عمل على نفي التفكك عن النص القرآني الذي اختلفت في كثير من جنباته آياته؛ بين ترتيب التلاوة وترتيب النزول، فأثبت الجانب الإعجازي في هذا النص وفق الآليات التي استثمرها، بما يؤكد مرة أخرى أن مباحث التفسير وعلوم القرآن تعد شكلا مبكرا من أشكال البحث في انسجام النصوص، وهو ما يجعلنا نطمئن إلى الجهاز المفاهيمي الذي صاغته هذه المباحث في سبيل بناء نظرية عربية خالصة في هذا المجال أي مجال البحث في انسجام النصوص وترابطها.

مراجع البحث

1- برهان الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، مصر، دط، دت.

2- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دط، 1984م.

3- بن الدين بخولة، الاتساق والانسجام النصي الآليات والروابط، دار التنوير، الجزائر، دط، 2004م.

4- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، دط، 1998م.

5- حياة مختار أم السعد، تداولية الخطاب الروائي: من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلفظ، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط1، 2015م.

6- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تر: محمد يحياتن،،منشورات الاختلاف ط، الجزائر، ط1، 2008م

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

7- رشيد برقان، آليات ترابط النص القرآني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء ط1،2015م.

8- سعيد تومي: "المستوى النصّي في الخطاب القرآني مقاربة اسلوبية لسورة الملك" مجلة دراسات أدبية مركز البصيرة للبحوث والاستشارات والخدمات التعلمية، دار الخلدونية للنشر والتوزيع ،ع15، أوت 2013م.

9- الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، دط، د ت.

10- الشوكاني، فتح القدير، مراجعة: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، ط4، 2007م.

11- عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل، نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، ط1، 2013م.

12- عثمان أبو زنيد، نحو النص: إطار نظري ودراسات تطبيقية، علم الكتب الحديث، إربد– الأردن، ط1، 2009م.

13- العز بن عبد السلام، كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، تح: محمد بن الحسن اسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، دط.، 1985م.

14- فتحي رزق الخوالدة، تحليل الخطاب الشعري ثنائية الاتساق والانسجام في ديوان احد عشر كوكبا، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2006م

15- فخرية غريب قادر، الانسجام في الخطاب القرآني : دراسة نصية في السور الموسومة بالعتاق الأول، عالم الكتب الحديث، إربد ط1، 2017م.

16- محمد أحمد يوسف القاسم، الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، دار المطبوعات الدولية، مصر، ط1، 1979م.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 33 العدد: 02 السنة: 2019 الصفحة: 565– 600 تاريخ النشر: 30–09–2019

17- محمد الحيرش: النص وآليات الفهم في علوم القرآن: دراسة وفق التأويليات المعاصرة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2013م.

18- محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2009م.

19- محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، 1984م.

20- ميلود مصطفى عاشور،إياد عبد الله، "فوضى تعريب مصطلحي (Cohesion– Cohérence) في لسانيات النص وتحليل الخطاب" مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، ع10، أفريل 2016م.

21- نسيم بوغرزة، "الانسجام التصّي في ضوء موضوع الخطاب" مجلة الناص، كلية الآداب واللغات، جامعة جيجل، منشورات جامعة جيجل، ع20، 2016م.